أسامة ابن منقذ وشعره

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

بقية ما نشر فى العدد الماضى

— ٥ —

يصور لنا شعر أسامة صلته بأبيه وإخوته : بهاء الدولة منقذ ، ونجم الدولة محمد ، وعز الدولة ، وشمس الدولة عبد الرحمن ابن أخيه محمد — قوية وثيقة ، يضمر لأبيه الحب وخالص الإجلال ، ويعنى أكبر ما يعنى بأن يكون راضيا عن خطواته وأهدافه . كتب إلى أبيه يستأذنه فى فراق شيزر بعد أن ساءت حياته فيها قصيدة طويلة منها :

فاسمح ببعدى عنهم برضاك لى ... إن الذى ترضى عليه موفق

حتى إذا آثر أسامة البعد ، كتب إلى أبيه قصائد يتشوق فيها إليه ، ويحدثه عن آماله فى لقائه والحياة معه ، حتى إذا سمع أسامة أن تغيرا عليه ألم بقلب والده ، بعث إليه يستعطفه ويسترضيه ، ومن ذلك قوله :

مالى ، وللشفعاء فيما أرتجى ... من حسن رأيك فى ، وهو شفيعى
أعذبت لى من جود كفك موردى ... فصفا وأمرع من نداك ربيعى
وبك اعتليت ، وطلت من ساميته ... فخرا بمجدك ، لا بحسن صنيعى
وقضى ببعدى عنك دهر جائر ... وإلى جنابك إن سلمت رجوعى

وكتب مرة إليه من مغتربه قصيدة منها :

بى لوعتان عليك يضعف عنهما ... جلدى من الأشواق والأشفاق
فالشوق أنت به العليم ، وغالب الإشفاق مما أنت فى ملاق وقد

أثرت هذه القصيدة فى نفس والده ، فكتب إليه :

أتظن أنى بعد بعدك باقى ... أجزى عن الأشواق بالأشواق
أأبا المظفر دعوة تشق الظما ... منى ، وإن أضحى بها إحراق
لم أستكن أبدا لخطب نازل ... إلا لبعدك ، فهو غير مطاق
فإذا أمات الوجد فيك أطاعنى ... قلبى ، ويبدى إن عصيت ـ شقاقى
فإذا ذكرتك خلت أنى شارب ... عل سقاه من المدامة ساق

ولعل والده رأى هذه القصيدة غير مبينة عما يضمره قلبه لولده ، من لاعج الشوق ، فقام أحد مؤدبى أسامة بنظم قصيدة أرسلها إليه ، يصف فيها حال هذا الوالد المعذب .

ولما شتت إخوته فى البلاد ، كانت رسائله إليهم تفيض بالحب وذكرى الفراق ، فإذا عتب عليه أحدهم ، تقبل عتبه بالعتبى ، وصادق الحب والودة . وحدث أن أخاه محمدا أسره الفرنج ، وهو راحل من مصر ، عقب حركة عباس وابنه نصر فلم يمنعه ما كان بينه وبين ابن عمه بشيزر من صلة مقطوعة ، أن يكتب إليه مستعينا به على فك أسر أخيه ، مبديا أرق ألوان الاستعطاف ، إذ يقول من قصيدة :

أنا ابن عمك ، فاجعلنى بفك أخى
من أسره ، لك عبدا ، ما مشت قدمى

ولكن ابن عمه لم يتأثر بالشعر ، ولم يسع فى فكاك أخيه .

أما صلته بعمه حاكم شيزر وابن عمه ، فظهر أنه حاول جاهدا الإبقاء على الصلة التى تربط بهما ، وبذل فى سبيل ذلك ما استطاع أن يبذل من عنت ومشقة . ولعل خير ما يصور موقفه فى تلك الفترة قوله :

وما أشكو تلون أهل ودى ... ولو أجدت شكيتهم شكوت
مللت عتابهم ، ويئست منهم ... فما أرجوهم فيمن رجوت
إذا أدمت قوارصهم فؤادى ... كظمت على أذاهم ، وانطويت
ورحت عليهم طلق المحيا ... كأنى ما سمعت ، ولا رأيت
تجنوا لى ذنوبا ما جنتها ... يداى ، ولا أمرت ، ولا نهيت
ولا والله ، ما أضمرت غدرا ... كما قد أظهروه ، ولا نويت
ويوم الحشر موعدنا ، وتبدو ... صحيفة ما جنوه وما جنيت

وبعد وفاة عمه حاول أسامة أن يصلح ما بينه وبين ابن عمه ، وأن يعطفه عليه ، ويلين قلبه ، ولكن يبدو أن هذا الجهد لم يؤت ثمرته ، فظلت النفرة بين أسامة وأهله ، حتى مضى زلزال « شيزر » بهم ، فبكاهم أسامة كما ذكرنا ، وكل هذا يدلنا على

ما امتازت به نفس أسامة من حب يضمره لأقاربه ، ورغبة خالصة في أن يعيش بينهم بظللهم جميعا الود والوئام ، لو استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولا ذنب عليه إذا هو أخفق في جهد كان جديرا به أن ينجح ، وأكاد ألمس في شعره أنه لم يسع يوما إلى فصم عروة مودة بينه وبين قريب أو صديق .

— ٦ —

ومن أكبر هؤلاء الذين اتصل بهم أسامة الملك الصالح طلائع بن رزيك ، ودار بين الاثنين كثير من المراسلات التي تفصح عن ود مكين بين قلبيهما ، وإعجاب كل بصاحبه أكبر الإعجاب ، فمضت قصائد الصالح إلى أسامة تدعوه إلى مصر حينا ، وتعتب عليه إيثاره البعد عنها حينا آخر ، وتأخذ عليه أحيانا أنه مقل في رسائله ، لا يوالي بعث كتبه ، وكثيرا ما حدثه الصالح عما قام به من حروب مع الفرنج ، ويطلب منه أن يكون وسيلته إلى نور الدين ، كي يجتمعا معا على حرب الصليبيين ، وقد شارك الصالح أسامة فيما نزل به من أحداث قاسية في حياته ، وكان الصالح معجبا بمواهب أسامة في الحرب والسلم ، يرى فيه محاربا شجاعا ، وشاعرا مفلقا ، وخطيبا بارعا ، وحكيما في إبداء الرأي صائبا ، يقول له :

وجهاد العدو بالفعل والقو ... ل على كل مسلم مكتوب
ولك الرتبة العلية في الأمرين ... مذ كنت إذ تشب حروب
أنت فيها الشجاع مالك في الطعن ... ولا في الضراب يوما ضريب
وإذا ما حضرت فالشاعر المفلق ... فيما تقــوله والخطيب
وإذا ما أشرت فالحزم لا ينكر ... أن التدبير منك مصيب
لك رأي مذ فقط إن ضعف الرأي ... على حامل الصليب صمايب

وهو لذلك يراه خير من يحمل عبء الرسالة إلى نور الدين ، يحرضه على أن يجتمعا معا على حرب الصليبيين في وقت واحد ، حتى تتشتت وحدتهم ، ولا يستطيعوا الحرب في جبهتين ، وذلك كان رأي الملك الصالح . يجهز الاثنان جيشيهما ، ويسيران معا في وقت واحد إلى أرض العدو ، طلب من أسامة أن يبلغ ذلك الرأي إلى نور الدين إذ قال له :

فانهض الآن مسرعا ، فبأمثا ... لك ما زال يدرك المطلوب
وألق عنا رسالة عند نور الدين ... ما في إلقائها ما يريب
قصدنا أن يكون منا ومنكم ... أجل في مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ما ضا ... ق بأدنائهم الفضاء الرحيب
وعلينا أن يستهل على الشام ... مكان الغيوث ، مال صبيب

فهو يعد هنا بالجيوش والمال ، ويرى أن اجتماعهما معا على حرب العدو كفيل بأن يأتي بهم في البحر ، أرسل رسالة إلى أسامة ، يقول فيها :

فلو ان نور الدين يحمل ... فعلنا فيهم مثـالا
ويسير الأجناد جهرا ... كي نناز لهم نزالا
وبقي لنا وللأهل دو ... لته بما قد كان قالا
لرأيت للافرنج طرا ... في معاقلها اعتقالا
وتجهزوا للسير نحـ ... ـو الغرب أو قصدوا الشمالا

وقام أسامة بدوره من تحريض نور الدين على الغزو والاجتماع على رأي الملك الصالح ، فكتب إليه أسامة يقول :

بلغ العبد في النيابة والتحـ ... ـريض ، وهو القوه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا ... دت له الأرض والجبال تميل

وكان رأي أسامة كرأي الصالح في الاجتماع ، ووحدة الكلمة ، ومضي الملكين معا إلى الحرب ، وقصائده إلى الملك الصالح تحث على هذا التضامن والاتفاق ، ولكن ذلك لم يخرج عن حد الأماني ، ولو أنه نفذ يومئذ فربما كان قد تغير مجرى التاريخ .

كانت رسائل الملك الصالح إلى أسامة كثيرا ما تصف له ما نزل بالقدس من محن على أيدي الصليبيين ، وما اتصف به هؤلاء من الغدر الذي لا يحول بينهم وبينه هدنة تعقد ، ولا عقد يبرم ، وكثيرا ما تحدثت هذه الرسائل عن وقائع الصالح في الفرنج ، وغزواته لهم .

ومضت قصائد أسامة تحمل الثناء على الملك الصالح ، وتشكر أياديه ، وكان الصالح يبره ، ويرسل إليه خيره ، ولم يكن أسامة

يجد غضاضة فى سؤال الصالح ولا الشكوى إليه ، كتب إليه مرة يقول :

أشكو زمانا قضى بالجور فى ، ولم   يزل يجور على مثلى ويعتسف
لت نوائبه عودى ، وأنفد مو   جودى ، وشتت شملى وهو مؤتلف
وقد دعوتك مظلوما ومرتجيا   رفى يديك الغنى والعدل والخلف

ومن شكر أسامة له قوله :

والندى طبعك الكريم ، فما أه   نى نوالا تنيـــله وتثيب
جاءنى والبعـــاد دونك ما   ب نياق البلاد دون نجوب
وعجيب أن الواهب تسرى   ويقيم المسترفد الموهوب

— ٧ —

ومدح أسامة غير الصالح معين الدين أنر ، حاكم دمشق ، عندما كان فى كنفه ، وبعد أن فارقه ، وجاء إلى مصر ؛ يثنى عليه بالجود الذى تعبده ، فيقول :

معين الدين ، كم لك طوق من   بجيدى مثل أطواق الحمام

وحينا يثنى عليه ببلائه فى حرب الصليبيين ، وانتصاره عليهم فيقول له :

أنت سيف الاسلام حقا فلا فل   غراريك أيها السيف دهر
بك زاد الاسلام ياسيفه الخ   ذم عزا ، وذل شرك وكفر

ومدح الوزير الأفضل عباس بن أبى الفتوح وزير الظافر ، وابنه نصرا على نعمه ، وما أولاه من الفضل والكرامة ، وفى ديوانه قصيدة لا أدرى لمن وجهها ، مدح فيها بتشجيع العلوم وتوطيد أركان العلوم ، أما رأيه فى نور الدين محمود :

فهو المحامى عن بلاد الشـ   ام أجمع أن تذالا
ومبيد أملاك الفر   نج وجمعهم حالا فحالا
ملك يتيه الدهر والد   نيا بدولته اختيالا
فإذا بدا للناظريـ   ن رأت عيونهم الكمالا

لكنه أخذ عليه شدة زهده ، وحمله الناس على الزهد ، حتى لقد أشبهت أيامه شهر الصوم فى طهارتها وامتلائها بالجوع والعطش ، وأسامة بهذا يدل على رغبة قوية فى أن يستمتع بالمباهج الطبية للحياة .

ومدح أسامة كذلك صلاح الدين ، ذاكرا أفضاله عليه وعلى الاسلام .

— ٨ —

كان أسامة شديد الاعتزاز بنفسه فى ميادين القتال ، شديد الاعتزاز بأسرته ، شديد الثقة بصبره ، وثباته وتجربته ، وكان ذلك كله ينبوع فخره فى شعره ، فما قاله مفتخرا بشجاعته :

لخمس عشرة نازلت الكماة إلى   أن شبت فيها ، وخير الخيل ماقرحا
أخوضها كشهاب القذف مبتسما   طلق المحيا ، ووجه الموت قد كلحا
بصارم من رآه فى قتام وغى   أفرى به الهام ظن البرق قد لمحا

أغدو لنار الوغى فى الحرب إن خمدت
بالبيض فى البيض والهامات مقتدحا
فســل كماة الوغى عنى ، لتعــلم كم
كرب كشفت ، وكم ضيق بى انفسحا

وهو يعلم أن مكانته فى السلم رهينة بمــا يبديه فى الحرب من بسالة وإقدام :

إن يحسدوا فى السلم منز   لتى من العز المنيف
فلما أهين النفس فى   يوم الوغى بين الصفوف
فلطالمــا أقدمت إذ   دام الحتوف على الحتوف
بعزيمة أمضى على   حد السيوف من السيوف

وفى كثير من شعره افتخر بصبره على المكاره ، وأحداث الزمان .

(للكلام صلة)   **أحمد أحمد بدوى**
مدرس بكلية دار العلوم

تاريخ الأدب العربي

للاستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى ، ومستيعاب موجز وتحليل مفصل واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع اثنى عشر مرة فى ٥٢٥ صفحة

وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد